

استحقاق الله تعالى التفرد في العبادة

بسم الله الرحمن الرحيم قال المؤلف -رحمه الله- إذا عرفت هذا.. عرفت معنى: لا إله إلا الله، وعرفت أن من نعى نبياً أو ملكاً أو ندبه أو استغاث به، فقد خرج من الإسلام، وهذا هو الكفر الذي قاتلهم عليه رسول الله -صلى الله عليه وسلم-. فإن قال قائل من المشركين: نحن نعرف أن الله هو الخالق الرازق المدبر؛ لكن هؤلاء الصالحون مقربون، ونحن ندعوهم، وننذر لهم، وندخل عليهم، ونستغيت بهم، ونريد بذلك الوجهة والشفاعة؛ وإلا فنحن نفهم أن الله هو الخالق الرازق المدبر. فقل: كلامك هذا مذهب أبي جهل وأمثاله فإنهم يدعون عيسى وعزيراً والملائكة والأولياء يريدون ذلك كما قال الله تعالى: { وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْصُرُهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شَفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ } . السلام عليكم ورحمة الله، بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم على محمد وعلى آله وصحبه أجمعين. إذا عرفت هذا.. عرفت معنى: لا إله إلا الله، وأن المراد: لا أحد يستحق أن يؤله إلا الله. فالله -تعالى- هو الإله الحق، والذين اتخذوا من دونه آلهة.. ألهمهم لا تنفعهم ولا تضرهم ولا تفيدهم شيئاً، أحبطوا أعمالهم وأبطلوا دينهم، وصاروا بذلك مشركين، وكفروا بالله؛ حيث جحدوا تفرد به بالإلهية. فإذا عرفت أن من نحا نبياً أو ملكاً أو ندبه أو استغاث به فقد خرج من الإسلام. قوله: "نحى" يعني: دعا دعوة تدل على التجائه إليه. كلمة يستعملها العامة في قولهم: فلان نخاك بنخاك؛ يعني: أنه يستجير بك، وأنه يَحْتَكُ على أن تنصره، وأن تؤويه، وأن تجيره، فهو معنى: دعاك لتجيره بقوله: يا فلان أخوك لتجيرني، وتحميني، وتتنصرني على من يريد قتلي، أو يريد إضراري. فيسمى هذا اثْتِخَاءً؛ انتحى فلان ونحى. ولو كانت غير فصيحة؛ لكن معناها ظاهر، المعنى: من استجار بنبي أو دعاه، أو ملك. لماذا لم يذكر إلا نبياً أو ملكاً؟ لبيان أن من عداهم فهو بطريق الأولى. يعني: قَمَرُ دعا من يُسَمَّى وليّاً، وادعى أنه ينفعه فقد أشرك، وَمَنْ أشرك خرج من حقيقة الإسلام؛ لأن الناس.. إما مشرك، وإما مُؤَخَّذٌ. فإذا كان من دعا نبياً يصير مُشْرِكاً، فكيف مَنْ دعا غير الأنبياء؟! الذي يدعو -مثلاً- وليّاً، أو سيّداً، أو شهيداً، أو نحو ذلك.. هذا بطريق الأولى أن يكون بعيداً عن الاهتداء، بطريق الأولى أن يكون بعيداً عن الصواب. فإذا كان من دعا الملائكة أشرك، ومن دعا الأنبياء أشرك، فمن دعا الأولياء، ومن دعا المتصوفة، ومن دعا السادة، ومن دعا الشهداء، ومن دعا الصالحين يصير مشركاً؛ وذلك لأنه دعاهم بشيء لا يقدر عليه إلا الله. إذا دعاهم أن ينصروه على عدوه وهم غائبون ليسوا حاضرين؛ فيكون دَعَاً غائباً، وكذلك إذا دعاهم لشيء في الآخرة، إذا قال: يا نبي الله.. خذ بيدي، يا نبي الله.. تجيبي من النار، يا ولي الله.. اشفع لي، يا ولي الله.. انصرني على عدوي، يا ولي الله.. أغثنني.. ارزقني.. هَبْ لي مالا.. هَبْ لي ولداً.. فإنه بذلك يكون قد اتخذها إلهاً، صرف له حق الله -أي- جعله إلهاً مع الله. وكذلك الندب والاستغاثة به. الندب: هو دعاؤه دعاءً بِيَرْتَاباً. وكانوا يندبون الأموات؛ يندبون الميت -بمعنى- أنهم يدعون دعاءً كدعاء الحي؛ ولكن ذلك على وجه التوجع عند مصيبة. ندب الأحياء لأمواتهم قولهم: وامحمداه! وإبراهيماه! وإراشدهاه! واسالماه! هذا يسمى ندباً عندما يموت ولد أحدهم أو نحوه. وكذلك قد يندبونه بقرابته منهم، فيقول أحدهما: وأخواه! وأوالداه! وأبواه! واصديقه! وهذا ندب، وقد يندبونه -أيضاً- بصفة، فيقول أحدهم: وأمطعماه! واكاسياه! واناصراه! واكافلاه! وامؤباه! يُسَمَّى هذا ندباً. فإذا قال: وانبياه! واملكاه! وامحمداه! يعني: انصرني يا محمد؛ فإنه قد ندبه، وأصبح بهذا الندب مشركاً؛ حيث دعا غير الله، وجعل ذلك الذي ندبه إلهاً مع الله؛ فلذلك يصير مشركاً خارجاً من حقيقة التوحيد. وكذلك من استغاث بنبي، أو رسول، أو ملك، أو جن، أو ميت؛ ولو كان صالحاً أو سيّداً. ذكرنا -بالأمس- أن الاستغاثة أَحْصَى من الدعاء، وهي أن المستغيث هو الذي يقع في كرب وفي شدة، فإذا دعا في تلك الحال يسمى دعاؤه استغاثة؛ ولكن ذلك المَدْعُوُّ الذي دعاه قد تأله، جعله إلهاً؛ ولو لم يُقَلِّ؛ ولو لم يُسَمِّهِ إلهاً، أما إذا استغاث بمن هو حوله، وطلب منه أن ينصره وهو قادر.. فلا مانع من ذلك. وذكرنا قول الله -تعالى- في قصة موسى { وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَى حِينٍ غَلِيَّةٍ مِنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَذَا مِنْ شِيعَتِهِ وَهَذَا مِنْ عَدُوِّهِ فَاسْتَعَاثَ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ } هذه استغاثة في شيء مفدور، كأنه قال: يا موسى أنا من شيعتك -يعني- من أقاربك، وهذا من عدوك، من آل فرعون فأغثنني -أي- انصرني. وموسى قادر، عنده قدرة على أن ينصره؛ ولهذا وكزه فقصى عليه. قَدَّلَ على أنه يجوز أن يُسْتَعَاثَ بالقادر، فتقول لأخيك -مثلاً- أغثنني! يعني: تطلبه أن يتضرك إذا رأيت مَنْ يريد أن يبطش بك، أو يؤذيك فتستغيث به حتى يُغِيثَكَ، وينصرك على مَنْ عاداك، على عدوك الذي يريد أن يضرك. فأما الغائب: فإنه لا يُسْتَعَاثَ به؛ مع أن الكلمة أصبحت عبادة، الاستغاثة أصبحت عبادة، لا يجوز أن تُسْتَعْمَلَ إلا في حق الله. الاستغاثة، والاستعاذة، والاستعانة، كلمات عبادة، والتوكّل، كلمات يُتَقَرَّبُ بها إلى الله؛ فلذلك يُتَأَكَّدُ ألا تستعمل إلا في الاستعانة بالله -تعالى-. قَمَرُ دعا غير الله -ولو نبياً، أو ملكاً، أو ندبه، أو استغاث به- فقد أشرك. والشرك يُسَمَّى كُفْراً؛ لأن الكفر أصله الجهل والستّر، ستر الشيء يُسَمَّى كُفْراً، يقول بعض الشعراء: فِي لَيْلَةٍ كَفَرَ النُّجُومُ غَمَامَهَا "كفر النجوم غمامها" يعني: الغمام ستر النجوم. وقَسَرُ بعضهم قول الله تعالى: { كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ تَبَاتُهُ } قالوا أو أكثرهم: إن الكفار هم الزُّرَّاعُ، يُسَمَّوْنَ كُفَّاراً لأنهم يسترون الحَبَّ في الأرض عندما يبذرونه ويبثونه في الأرض ثم يدفونوه. سَمِيَ الكافر كافرًا؛ لأنه يستر الخير، يستر التوحيد، يستر الإيمان ويجحده ويُبْعِدُهُ وينكره، فيكون قد ستر ما هو حقٌّ، وأظْهَرَ ما هو باطل. وأكثر ما يُطْلَقُ على الكفر بالله الذي هو إنكار الوجودانية، أو إنكار الربوبية؛ ولهذا لما أن النبي -صلى الله عليه وسلم- ذَكَرَ النساء وقال: { إنّي رأيت النساء أكثر أهل النار، لماذا؟ قال: يَكْفُرْنَ! قال الصحابة: أيكفرن بالله؟ فقال: يَكْفُرْنَ الإحسان، ويكفرن العشير، لو أحسنت إلى إحداهن الدهر، ثم رأت منك شيئاً، قالت: ما رأيت منك خيراً قط! } فهذا دليل على أن ستر الشيء يُسَمَّى كُفْراً، يعني: أن من ستر الإحسان، وأنكره، وأخفاه صدق عليه أنه كَفَر. وكذلك مَنْ أنكر النعمة، كَفَرَ نعمة الله، في قوله تعالى: { أَلَمْ تَر إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَةَ اللَّهِ كُفْرًا } يعني: ستروها وجحدوها وأنكروها من الله. وتقول: فلان كفر النعمة عليه، كفر ما أنعمنا عليه -يعني- جحد ذلك، وستره وأنكره. قَمَرُ أنكر وجدانية الله فقد كفر، ومن أنكر استحقاق الله -تعالى- أن يُقَرَّدَ بالدعاء، أو أن يُقَرَّدَ بالاستغاثة، أو أن يُقَرَّدَ بالاستعانة، أو بالتوكّل، أو بالتوبة إليه، أو بالإجابة إليه، أو بالركوع له، أو بالسجود له، أو بالخوف، أو بالرجاء، أو بالمحبة. فمن جحد أو أنكر استحقاق الله -تعالى- أن يُقَرَّدَ بذلك فقد جَحَدَ نعمة الله، وقد جحد وجدانية الله؛ فأصبح بذلك كافرًا؛ سواء كُفْرًا جُزْئِيًّا، أو كُفْرًا كَلْبِيًّا. فالكفر الكَلْبِيُّ الكامل؛ هو الذي يكفر بالله، ويكفر بالشرعية، ويكفر بدين الإسلام، ويكفر بالنبوة -يعني- يجحد ذلك كله. وأما الكفر الجزئي: فهو الذي يَكْفُرُ بنوع من أنواع العبادات. لما ذكر المؤلف -رحمه الله- أنواع العبادة في "ثلاثة الأصول" قال: قَمَرُ صرف منها شيئاً لغير الله فهو مشرك كافر. وذلك لأنه جعل مع الله شريكاً، جعل عبادته مشتركة، الدعاء شَرَّكَ فيه غير الله مع الله، والاستغاثة شَرَّكَ فيها غير الله معه، والإجابة أشرك فيها مع الله غيره، وكذا يُقَالُ في التوبة، ويُقَالُ في الخشوع، وفي الخشية، والرغبة، والرغبة، والمحبة. قَمَرُ جعل واحداً منها مشتركاً بين الخالق والمخلوق، صدق عليه أنه أشرك بالله، وأنه كَفَرٌ وجدانية الله في ذلك الشيء الذي أَحْتَمَى الله -تعالى- به، فإن الله حَصَّنَ نفسه باستحقاق جميع أنواع التَّأَلُّهِ، أنواع الإلهية حَصَّهَا لنفسه، يقول تعالى: { مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ } أي: ليس معه إله { مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ } ولو من الأولياء، أو الصالحين، أو نحوهم. نعرف أن الكفر منه: كفر مُخْرَجٌ من الملة، وهو الشرك الأكبر الذي لا يقبل الغفران. ومنه: الشرك الأصغر، وهو الذي لا يخرج من الملة؛ ولكنه يُخْطِئ الأعمال. فالرباء اليسير لا يُخْرِجُ من الملة؛ ولكن يُخْطِئ العمل الذي قام به، ويحتاج إلى التوبة منه، أو يُعَدِّبُ عليه. وكذلك تعليق التمام والحروز لا يُخْرِجُ من الملة؛ ولكنه يُقَيِّضُ التوحيد، وقد يُخْطِئ بعض الأعمال التي قام بها. وكذلك أنواع الشرك الأصغر، يعني: كالطيرة، وقول: هذا من الله ومنك، ما لي إلا الله وأنت، ما شاء الله وشئت!! مثل هذه الكلمات تُعَبِّئُ شركاً أصغر، وتُعَبِّئُ نوعاً من الكفر، وهو كُفْرٌ دون كفر.